

كانون الثاني

الزمان : كانون الثاني ٢٠١٢

المكان : سوريا

جلسنا جميعاً حول تلك الشعلة طلباً للدفاء وربما أملاً في الضوء.
الضوء الذي بدأ يصبح أملاً غائباً نسعى جميعاً إليه بعد أن إحتل اليأس
عروقنا وأصبح يتجول بحرية داخل أجسادنا بدلاً من الدماء التي أصبحت
مجرد ألوان تتزين بها صخور الأرض.
ووسط هذا الضجيج بزغ شعاع من الأمل سمعته أذاننا قبل أن تلمحه أبصارنا
كان محمد يجلس بجانبنا وقد لف حول رقبته شاله المميز الذي حاكته له
زوجته خصيصة ليصبح لوحة فنية مفعمة بكل أعلام الدول العربية كان يشدو
بصوت مرتفع جميل :

الغضب الساطع آتٍ و أنا كلي إيمان
الغضب الساطع آتٍ سأمرّ على الأحزان
من كل طريق آتٍ بجياد الرهبة آتٍ
و كوجه الله الغامر آتٍ آتٍ آتٍ
وقتها أحسست أن المكان والزمان قد توحدوا وأنني لا أعرف أين أنا ، كل ما
أعلمه أن العدو هو من يقتلني وأن الغضب آتٍ لا محالة

شاء القدر أن أكون شاهداً على تلك الملمحة (محمد وشذا).

كانت شذا فتاة رقيقة هادئة الطباع لم نصدق أن تلك الفتاة والتي هي زوجة صديق الكفاح محمد هي ابنة هذا الرجل الذي طالما باع نفسه وقلمه وصوته لأصحاب النفوذ. عفواً هو لا يستحق لقب مفكر ولا يرقى للقب كاتب، هو بهلوان السلطان.

وعشقت ابنة بهلوان السلطان الشاب الفقير واتخذت القصة مجراها الطبيعي لتتزوج الجميلة بابن أحد أباطرة السلطة في وطننا المنهوب ويصبح جها الحقيقي مجرد ذكرى.

ولكن إذا أراد الله لهذه الذكرى أن تعود فإنها تعود بقوة وبعد سنوات من الزواج البائس هربت شذا من الجحيم وقابلت محمد مرة أخرى وتلك المرة لم يستطع أحد الوقوف أمام هذا الحب . لم تتزوج شذا محمد فقط بل أصبحت بجانبه قلباً وقلباً وهتفت بشجاعة ضد الظلم ضد السلطة وسبحت بقوة ضد التيار.

كانت شذا تصرخ بأعلى صوتها رغم أصوات الرصاص حولنا «سلمية» .

نعم كانت تسعى لفرض السلام حولها أينما خطت بقدميها الصغيرتين.

وعندما انفجرت فيها إحدى زميلاتنا تتهمها بالنفاق وتذكرها بأبيها وخطبه الرنانة ضد ثورتنا بل وإتهامه لكل من شارك فيها بالخيانة كانت هادئة مبتسمة وهي تقول : لا تفسحي للدماء مجالاً عزيزي ، هم يريدون الدماء ونحن نسعى لحقنه ، هذا هو الفرق .

وهكذا ظلت شذا تسعى بكل ما اوتيت من قوة فرض السلام حولها وحولنا رغم الدماء ورغم الغضب ورغم الخيانة . كانت تصر على مقولتها الشهيرة «سلمية»

حتى جاء اليوم الذي تغير فيه كل شيء . كانت لحظة فارقة ... نعم فارقة .

هل هذا ضباب !لا ليس ضباب. كنا نبحث عن بعضنا البعض بيأس. رأيت شذا تقف باكيةً وقد سقط غطاء رأسها الأبيض وتلوث بلون الأرض وأصبح شعرها رمادياً بفعل تلك العاصفة الترابية التي فجرها الظلم بقذائفه فوق رؤوسنا .. كانت تصرخ بصوت متحشرج فقد بهجته في لحظات. محمد...محمد أين أنت ؟

اختفى محمد واختفت بسمه شذا . حل الصراخ محل الهدوء والحزن طغى على الابتسامة الكاذبة التي كنا نسعى جميعاً جاهدين في رسمها على وجوهنا اختفى صوت محمد بأمله وغضبه وحل محله صوت الموت الذي رأيته في عيناها عندما رأيت جسد زوجها وقد تهاوى تحت وابل الرصاص.

سقط محمد مثل الكثيرين وأصبح مجرد جسد بلا روح. أصبح مجرد رقم نستمتع إليه في نشرات الأخبار متبعاً بلقب شهيد . وبعدها اختفت شذا . لم نعد نستمتع لهذا الصوت الرفيع الرنان الذي إعتاد أن يصرخ فوق رؤوسنا كلما استبد بنا الغضب فعمدنا لحجر نقذفه أو كرة من اللهب نعبر بها عن الغضب المتأجج بداخلنا ولكن فجأة وفي أحد الأيام وقد اشتد القيظ بنا رغم أننا في فصل الشتاء نتيجة وابل الرصاص والقذائف التي لم تفرق بين الليل والنهار

رأيته . لم أصدق عيني هل عاد إلى الحياة ؟! نعم إنه محمد كان يخطو بإصرار وقد إلتف بشاله المميز . لم أرى من ملامحه شيئاً فقط عيناه وخطواته الصغيرة الواثقة . كان يمسك بإحدى يديه شيئاً لم أستوعب ماهيته حتى إكتشفت أنه سلاحاً يصوبه بإصرار نحو الجنود أمامنا وهم يسقطون أمامه واحداً تلو الآخر . مهلاً ! محمد لم يعرف الرماية من قبل ، ليس بتلك المهارة . كانت شذا هي من تعلمت الرماية من صغرها . إذاً من صاحب هذا الجسد الصغير الذي يقتلهم بلا هوادة ؟! وَيحي إنها شذا!

كنت أستمتع لصوت أبيها المنبثق من الراديو الصغير بجيبي وهو يتهم كل

من يشارك في تلك الثورة بالعمالة، يدعو للقتل والحرق بقلب ميت كان صوته يمثل معزوفة قبيحة أستمع إليها وأنا أراقب وأصور ما يحدث أمامي. ابنته تخطو بثقة نحو الموت تقتلهم بدم بارد. ظلت تخطو نحوهم بثقة حتى اختفت ولم أعد أستمع سوى لصراخ الأب من جهازى الصغير.. اقتلوهم، أعداء الوطن .. اقتلوهم بلا هوادة !!!!!

نعم أنا الصحفي والمدون فلان الفلاني فاسمي لا يهم كثير من أنا حتى أضع اسمي أو أنشره فالاسماء التي تستحق الذكر أصبحت بالآلاف وأخشى أن تنفذ منا الأوراق قبل تسجيلها

قبل أن تفارق الحياة أعطتني هذا الشريط ، طلبت مني أن أنشره على الملأ كي يستمع له الجميع ، كانت محادثة تليفونية أجرتها مع أبيها قبل اليوم المنشود الذي قررت فيه أن تتزين بشال زوجها الراحل وتأخذ بثأره هو ومن سبقوه حتى تلحق بهم في النهاية

كان صوتها بائساً هادئاً وكانت نبرتها تتسم بالوداع وكأنها تعلم أن تلك الكلمات ستكون آخر كلماتها في تلك الحياة

-مرحباً أبي

-هل ما زلتِ تذكرين أن لكِ أباً أيتها الجاحدة

-وهل الجحود يستحق الموت أبي

-ماذا تقولين

-لماذا تقتلوننا ؟

-من أنتم !!! أنتم مجرد أدوات ساذجة عليكم اللعنة جميعاً

-لماذا تقتلوننا ؟

-عودي أيتها الحمقاء أنتِ ومن معكِ لا تفقهون شيئاً

-لماذا تقتلوننا ؟

-أنتم من تقتلون أنفسكم بحماقتكم
صمتت قليلاً ثم تابعت بنبرة قوية : لا بل أنتم من قتلتمونا ، جئناكم بورقة
بيضاء تلونت بحروف السلام ولوثتوها أنتم بالدماء ، أنتم من أراد الدماء
وسنعطيها لكم

-ماذا !!!! ماذا تقولين أيتها الحمقاء؟! عودي أنتِ لا تفقهين شيئاً
-نعم؟..الآن أنا لا أفقه سوى شئ واحد فقط ، هل تعلم ما هو أبي
-لا أعلم . أخبريني
-العين بالعين والسن بالسن والبادئ أظلم

إنتهت المكالمة وإنتهى الحديث ..من وقتها لم نعد نسمع سوى أصوات
الرصاصة .. حتى الآن !

مرودة جمال الدين